الحسن البصري

اسمه ونسبه:

الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت، ويقال: مولى جابر بن عبد الله، ويقال: مولى جميل بن قطبة، ويقال: مولى أبي اليسر مولى سعيد وعمار[1].

وكانت أم الحسن مولاة لأم سلمة المخزومية أم المؤمنين زوج النبي ﷺ.

وروي أن ثدي أم سلمة در عليه، ورضعها غير مرة.

ويسار أبوه: من سبي ميسان، سكن المدينة، وأعتق، وتزوج بها في خلافة عمر، فولد له بها الحسن رحمه الله لسنتين بقيتا من خلافة عمر. واسم أمه: خيرة[2].

عن الحسن، قال لي الحجاج: ما أمدك يا حسن؟ قلت: سنتان من خلافة عمر[3].

نشأته:

درج الحسن في جو مفعم بالإيمان، مليء بالعلم، فترعرع في وادي

---

(١) إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مغلطاي بن قليج البكجري الحكري، ٤/ ٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٦٤.

(٣) ابن سعد في الطبقات، ٧/ ١٥٧.

القرى، وحضر الجمعة مع عثمان، وسمعه يخطب، وشهد يوم الدار، وله يومئذ أربع عشرة سنة.

قال الحجاج بن نصير: سبيت أم الحسن البصري من ميسان، وهي حامل به، وولدته بالمدينة.

ثم إن الحسن حظي بلبن طيب مبارك من بيت النبوة خالط لحمه ودمه منذ أن تفتحت عيناه على الدنيا، فلقد كانت أم المؤمنين أم سلمة تبعث أم الحسن في الحاجة، فيبكي وهو طفل، فتسكته أم سلمة بثديها[١].

وكانت تخرجه إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو صغير، وكانت أمه منقطعة إليها، فكانوا يدعون له، فأخرجته إلى عمر، فدعا له، وقال: اللهم فقهه في الدين، وحببه إلى الناس[٢].

صفاته الخَلقية واهتمامه بهيئته:

كان الحسن رجلاً تام الصورة، مليح الخلقة، بهياً، وسيماً، وكان من الشجعان.

عن أم الحكم، قالت: كان الحسن يجيء إلى حطان الرقاشي، فما رأيت شاباً قط كان أحسن وجهاً منه!

عن عاصم الأحول، قلت للشعبي: ألك حاجة؟ قال: نعم، إذا أتيت البصرة فأقرئ الحسن مني السلام، قلت: ما أعرفه. قال: إذا دخلت البصرة، فانظر إلى أجمل رجل تراه في عينك، وأهيبه في صدرك، فأقرئه مني السلام.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٦٤.

(٢) أخبار القضاة للضبي، ٢/ ٥.

قال: فما عدا أن دخل المسجد، فرأى الحسن والناس حوله جلوس فأتاه فسلم عليه[١].

وقال أبو هلال: رأيت الحسن يغير بالصفرة.

وعن جرثومة، قال: رأيت الحسن يصفر لحيته في كل جمعة[٢].

قال ابن علية عن يونس: كان الحسن يلبس في الشتاء: قباء حبرة، وطيلساناً كردياً، وعمامة سوداء، وفي الصيف: إزار كتان، وقميصاً، وبرداً حبرة[٣].

الحسن يعيش فترة بين الصحابة ويروي بعض أخبارهم:

أدرك الحسن كوكبة مشرقة من الصحابة الكرام، فلازم الكثير منهم ملازمة السوار للمعصم فأخذ من علمهم، ونهل من أخلاقهم، وارتشف من أدبهم، وتروّى بسمتهم، وسلك سيرتهم.

يقول الحسن: سمعت عثمان رضي الله عنه يقول في خطبته ـ أراه قال ـ: اقتلوا الكلاب والحمام.

وقال: رأيت عثمان نائماً في المسجد حتى جاءه المؤذن فقام، فرأيت أثر الحصى على جنبه.

وعن الحسن، قال: شهدت عثمان يوم الجمعة قام يخطب، فقام إليه رجل، فقال: أنشدك كتاب الله. فقال عثمان: اجلس، أما لكتاب الله منشد غيرك؟! قال: فجلس، ثم قام ـ أو قام رجل غيره ـ فقال مثل مقالته، فقال له: اجلس، أما لكتاب الله منشد غيرك؟! فأبى أن يجلس، فبعث إليه

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر، ٢/ ٢٣٢.

(٢) انظر ابن سعد في الطبقات، ٧/ ١٦٠.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧٥.

الشرط ليجلسوه، فقام الناس، فحالوا بينهم وبينه، ثم تراموا بالبطحاء حتى يقول القائل: ما أكاد أرى السماء من البطحاء. فحصبوا الذين حصبوه، ثم تحاصب القوم والله، فأنزل الشيخ يهادى بين رجلين، ما كاد أن يقيم عنقه حتى أدخل الدار، فقال: لو جئتم بأم المؤمنين، عسى أن يكفوا عنه. قال: فجاؤوا بأم حبيبة بنت أبي سفيان، فنظرت إليها وهي على بغلة بيضاء في محفة، فلما جاؤوا بها إلى الدار، صرفوا وجه البغلة حتى ردوها.

وعن الحسن، قال: كنت أدخل بيوت رسول الله ﷺ في خلافة عثمان أتناول سقفها بيدي، وأنا غلام محتلم يومئذ.

وقال: كنت يوم قتل عثمان ابن أربع عشرة سنة.

عن مبارك بن فضالة، حدثنا الحسن، عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جنب خشبة؛ يسند ظهره إليها، فلما كثر الناس، قال: «ابنوا لي منبراً له عتبتان». فلما قام على المنبر يخطب، حنت الخشبة إلى رسول الله ﷺ. قال: وأنا في المسجد، فسمعت الخشبة تحن حنين الواله، فما زالت تحن حتى نزل إليها، فاحتضنها، فسكنت.

وكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث، بكى، ثم قال: يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه[1].

ولقد روى الحسن عن: عمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة، وسمرة بن جندب، وأبي بكرة الثقفي، والنعمان بن بشير، وجابر، وجندب البجلي، وابن عباس، وعمرو بن تغلب، ومعقل بن يسار، والأسود بن سريع، وأنس، وخلق من الصحابة.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧٠.

وقرأ القرآن على: حطان بن عبد الله الرقاشي.

وروى عن: خلق من التابعين.

وما زال الحسن يتردد على علماء الصحابة وفقهائهم حتى غدا علماً من أعلام المسلمين وقبلة لطلبة العلم والعلماء يقصد من كل مكان.

يقول حزم القطعي: رأيت الحسن قدم مكة، فقام خلف المقام، فصلى، فجاء عطاء، وطاوس، ومجاهد، وعمرو بن شعيب، فجلسوا إليه.

هذا أعلى ما يقع لنا عن الحسن البصري - رَحِمَهُ اللَّهُ -[1].

الحسن جمع الجهاد إلى جانب العلم:

لم يكن الحسن متميزاً بالعلم فحسب، بل إذا ذكر المجاهدون الأبطال، والفرسان الشجعان كان في طليعتهم، ومن أشدهم بأساً، وأقواهم شكيمة، وكان كثير الجهاد، ويحب الغزو، بل عده بعضهم من أشجع أهل زمانه.

وحدث الأصمعي عن والده قال: ما رأيت زنداً أعرض من زند الحسن البصري، كان عرضه شبراً.

ويقول عنه الذهبي: كان من الشجعان الموصوفين.

ولم يحج الحسن إلا حجتين، وكان يكون بخراسان، وكان يرافق مثل قطري بن الفجاءة، والمهلب بن أبي صفرة، وكان من الشجعان.

قال هشام بن حسان: كان الحسن أشجع أهل زمانه[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧١.

(٢) المصدر السابق.

وقال جعفر بن سليمان: كان الحسن من أشد الناس، وكان المهلب إذا قاتل المشركين، يقدمه[١].

ثناء العلماء عليه:

كثر ثناء العلماء والأخيار على الحسن لما تميز به من علم وعمل وخشية وتقى، فلقد كان الإمام القدوة ليس في نظر العوام فحسب بل في نظر أكابر العلماء وفضلائهم.

يقول حجاج بن أرطاة: سألت عطاء عن القراءة على الجنازة، قال: ما سمعنا ولا علمنا أنه يقرأ عليها، قلت: إن الحسن يقول: يقرأ عليها. قال عطاء: عليك بذاك، ذاك إمام ضخم يقتدى به.

وقال أبو قتادة: الزموا هذا الشيخ، فما رأيت أحداً أشبه رأياً بعمر منه - يعني: الحسن -.

وعن أنس بن مالك، قال: سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا.

وقال مطر الوراق: لما ظهر الحسن، جاء كأنما كان في الآخرة، فهو يخبر عما عاين.

وعن الشعبي، قال: ما رأيت الذي كان أسود من الحسن[٢].

وقال خالد بن رياح الهذلي: سئل أنس بن مالك عن مسألة، فقال: سلوا مولانا الحسن، فقيل له في ذلك فقال: إنه قد سمع وسمعنا فحفظ ونسينا.

وقال سليمان التيمي: الحسن شيخ أهل البصرة[٣].

---

(١) أورده الفسوي في المعرفة والتاريخ، ٢/ ٤٩.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧٣.

(٣) طبقات الحفاظ للسيوطي، ١/ ٤.

وقال قتادة: ما جمعت علم الحسن إلى أحد من العلماء، إلا وجدت له فضلاً عليه، غير أنه إذا أشكل عليه شيء، كتب فيه إلى سعيد بن المسيب يسأله، وما جالست فقيهاً قط، إلا رأيت فضل الحسن.

قال أيوب السختياني: كان الرجل يجلس إلى الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن المسألة هيبة له.

وقال معاذ بن معاذ: قلت للأشعث: قد لقيت عطاء وعندك مسائل، أفلا سألته؟! قال: ما لقيت أحداً بعد الحسن إلا صغر في عيني.

وقال أبو هلال: كنت عند قتادة، فجاء خبر بموت الحسن، فقلت: لقد كان غمس في العلم غمسة.

قال قتادة: بل نبت فيه، وتحقبه، وتشربه، والله لا يبغضه إلا حروري.

قال ابن المسيب، وعروة، والقاسم، وغيرهم: ما رأيت مثل الحسن، ولو أدرك الصحابة وله مثل أسنانهم، ما تقدموه.

وعن الربيع بن أنس، قال: اختلفت إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله، فليس من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبل ذلك[١].

وقال الأعمش: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها، وكان إذا ذكر عند أبي جعفر يعني الباقر قال: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧٤، وانظر ابن سعد، ٧/ ١٦١، تهذيب الأسماء والصفات للنووي، ١/ ٢١٦.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر، ٢/ ٢٣٢.

وعن أبي بردة، قال: ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد ﷺ منه[١].

عن الأصبغ بن زيد، سمع العوام بن حوشب، قال: ما أشبه الحسن إلا بنبي.

وروينا عن محمد بن سعد، قال: كان الحسن جامعاً، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم، جميلاً، وسيماً.

وقدم مكة فأجلسوه على سرير، واجتمع الناس إليه، فيهم طاوس، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن شعيب، فحدثهم، فقالوا، أو قال بعضهم: لم ير مثل هذا قط.

وقال بكر بن عبد الله: الحسن أفقه من رأى[٢].

عبادة الحسن البصري:

كان الحسن البصري عابداً زاهداً، نقياً تقياً، صواماً قواماً، يصوم الأشهر الحرم، والإثنين والخميس، يوافق فعله قوله.

قال قتادة: يقال: ما خلت الأرض قط من سبعة رهط، بهم يسقون، وبهم يدفع عنهم، وإني لأرجو أن يكون الحسن أحد السبعة.

قال قتادة: ما كان أحد أكمل مروءة من الحسن.

وقال يونس بن عبيد: أما أنا، فإني لم أر أحداً أقرب قولاً من فعل من الحسن.

وقال عوف: ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد، ٧/ ١٦٢، وأخبار القضاة للضبي، ٢/ ٧.

(٢) تهذيب الأسماء والصفات للنووي، ١/ ٢١٨.

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: ما رأيت أحداً أطول حزناً من الحسن، ما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة.

وقال السري بن يحيى: كان الحسن يصوم: البيض، وأشهر الحرم، والإثنين والخميس[١].

عن حمزة الأعمى، قال: ذهبت بي أمي إلى الحسن، فقالت: يا أبا سعيد، ابني هذا قد أحببت أن يلزمك، فلعل الله أن ينفعه بك، قال: فكنت أختلف إليه، فقال لي يوماً: يا بني، أدِم الحزن على خير الآخرة، لعله أن يوصلك إليه، وابك في ساعات الخلوة لعل مولاك يطلع عليك فيرحم عبرتك، فتكون من الفائزين.

قال: وكنت أدخل عليه منزله وهو يبكي، وآتيه مع الناس وهو يبكي، وربما جئت وهو يصلي، فأسمع بكاءه ونحيبه، قال: فقلت له يوماً: يا أبا سعيد، إنك لتكثر من البكاء. قال: فبكى، ثم قال: يا بني، فما يصنع المؤمن إذا لم يبك؟! يا بني، إن البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعت أن لا تكون عمرك إلا باكياً فافعل، لعله يراك على حالة فيرحمك بها، فإذا أنت قد نجوت من النار[٢].

كثرة مراقبته:

كان الحسن إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن أمه، وإذا جلس فكأنما قدم لتضرب عنقه، وإذا تكلم فكأنما النار على رأسه[٣].

---

(١) الزهد لأحمد، ٢٦٩.

(٢) تهذيب الكمال للمزي، ٦/ ١١٦.

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري، ١/ ١٢٩.

إبراهيم بن عيسى اليشكري قال: ما رأيت أطول حزناً من الحسن، وما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة.

عن يونس قال: كان الحسن يقول: نضحك ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئاً.

حكيم بن جعفر قال: قال لي مسمع: لو رأيت الحسن لقلت قد بث عليه حزن الخلائق، من طول تلك الدمعة وكثرة ذلك النشيج.

محمد بن سعد قال: قال يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما[١].

عن حفص بن عمر قال: بكى الحسن، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أخاف أن يطرحني غداً في النار ولا يبالي[٢].

يوسف بن أسباط قال: مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك، وأربعين سنة لم يمزح.

قال: وقال الحسن: لقد أدركت أقواماً ما أنا عندهم إلا لص.

عن حميد قال: بينما الحسن في المسجد، تنفس تنفساً شديداً ثم بكى، حتى أرعدت منكباه ثم قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحاً، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة؛ ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة[٣].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٣٥٨.

(٢) المنتظم لابن الجوزي، ٢/ ٣٧٨، صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٣٥٨.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٣٥٨.

الحسن بليغ الكلام صحيح اللسان:

كان الحسن البصري: عذب اللسان، رائع البيان، كلامه يأسر قلوب الحاضرين، وبيانه يخلب ألباب السامعين، ومن سمع كلامه شبهه بكلام الأنبياء، ويعلل لنا السبب في ذلك الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقول: فربما خرجت أمه في شغل فيبكي فتعطيه أم سلمة ـ زوج النبي ﷺ ـ ثديها فيدر عليه، فيرون أن تلك الفصاحة والحكم من ذلك[١].

وعن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: لو أشاء أقول أن القرآن نزل بلغة الحسن لقلت لفصاحته[٢].

قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن، والحجاج، كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قوم من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء.

جوده وسماحته:

لم يكن خلق الجود والكرم والسماحة منفصلاً عن منظومة الأخلاق التي متَّع الله بها الحسن، فكان جواداً بما ملك، كريماً بما استطاع، سمح النفس في البيع والشراء، يستبشر ويفرح بمقدم الضيوف والأصدقاء، ومن قوله:

أُضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ... ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ

وَما الخصب للأَضياف أَن يكثر القِرى ... ولكنما وجه الكَريم خَصيبُ

يقول قتادة: دخلنا على الحسن وهو نائم، وعند رأسه سلة، فجذبناها، فإذا خبز وفاكهة، فجعلنا نأكل، فانتبه، فرآنا، فسره، فتبسم، وهو يقرأ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ لا جناح عليكم.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٢١٦.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، ١/ ١٠٣.

قال أيوب: ما وجدت ريح مرقة طبخت أطيب من ريح قدر الحسن.

وقال أبو هلال: قلما دخلنا على الحسن، إلا وقد رأينا قدراً يفوح منها ريح طيبة[١].

عن يونس قال: أمرني الحسن أن أشتري له إزاراً، فدخلت السوق فرأيت إزاراً مع رجل، فقلت: بكم؟ قال: بثمانية دراهم، قلت: لا، سبعة دراهم، قال: ثمانية. قلت: لا سبعة. قال: سبعة ونصف. قلت: لا سبعة. فأبى أن يبيعني، فدخلت السوق فلم أر شيئاً كان أمثل منه عندي فرجعت إليه، وقلت: هات ميزانك، قال: فوضعت له ثمانية. فقال: سبعة ونصف. فقلت: إن الذي أمرنا أن نشتري له هذا الإزار قال: إن اشتريتم لي شيئاً من السوق فكان فيه كسر فأجبروه لصاحبه. قال الرجل: هو الحسن إذاً.

عن أبي جعفر وذكر عنده الحسن ومحمد فقال: إن الحسن كان ما جرى بينه وبين أبي العالية أنه جاء إلى السوق يطلب ثوباً، فأتاني فأخرجت له ثوباً صالحاً وأخذت الدراهم، فذهب فأراه فقالوا: هذا خير من دراهمك.

قال: فجاء فقال: رد علينا دراهمنا بارك الله فيك فرددت عليه الدراهم وأخذت الثوب[٢].

زهده واستغناؤه عن الناس:

كان الحسن البصري زاهداً في الدنيا، متقللاً من متاعها، حتى يلقى ربه خفيف الحمل، فهو يرجو الآخرة وذخرها، فلقد زهد فيما عند الملوك فرغبوا فيه، واستغنى عن الناس وما في أيديهم فأحبوه.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٨٤.

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوي، ١/ ١٩٠.

فعن مطر قال: دخلنا على الحسن نعوده، فما كان في البيت شيء لا فراش ولا بساط ولا وسادة ولا حصير إلا سرير مرمول هو عليه.

عن ثابت قال: ذهبت مع الحسن بن أبي الحسن إلى حاجة فأتينا على السوق. فقال: ما من بقعة أبغض إلى الله منها. قال: ثم ذهبنا حتى أتينا على قصر أوس، فقال الحسن: قصر أوس! قصر أوس! قصر أوس! من يعطي رجلاً مسكيناً كفاً من تمر خير له من أن يدع مثل هذا[١].

تفرقت المناقب على العلماء واجتمعت في الحسن:

تمنى رجل، فقال: ليتني بزهد الحسن، وورع ابن سيرين، وعبادة عامر بن عبد قيس، وفقه سعيد بن المسيب، وذكر مطرف بن الشخير بشيء.

قال: فنظروا في ذلك، فوجدوه كله كاملاً في الحسن.

يقول الذهبي: جمع الله ﷻ للحسن البصري العلم من جميع أطرافه، فكان فقيهاً حجة وثبتاً في الحديث وعالماً في القرآن وتفسيره وتأويله، وكما أنه حجة في اللغة والبلاغة وعلم القلوب، فأما حلقته في المسجد فكان يمر فيها الحديث، والفقه، وعلم القرآن واللغة، وسائر العلوم، وكان ربما يسأل عن التصوف، فيجيب، وكان منهم من يصحبه للحديث، وكان منهم من يصحبه للقرآن والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص، كعمرو بن عبيد، وأبي جهير، وعبد الواحد بن زيد، وصالح المري، وشميط، وأبي عبيدة الناجي، وكل واحد من هؤلاء اشتهر بحال ـ يعني: في العبادة ـ[٢].

حماد عن حميد قال: قرأت القرآن كله على الحسن في بيت أبي

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي، ١/ ١٩٠.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧٩.

خليفة، ففسره لي أجمع على الإثبات، فسألته عن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، قال: الشرك سلكه الله في قلوبهم. وسألته عن قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قال: أعمال سيعملوها لم يعملوها، قال: فسألته عن قول الله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾[1].

وقال عبيد الله بن عمر القواريري، عن حاتم بن وردان: كنا عند أيوب فسأله رجل عن حديث من حديث الحسن في كذا وكذا، ثم ضحك، فغضب أيوب غضباً ما رأيته غضب مثله، قال: مم ضحكت؟ قال: لا شيء يا أبا بكر، قال: ما ضحكت لخير، ثم قال أيوب: إنه والله ما رأت عيناك رجلاً قط كان أفقه من الحسن[2].

العوام بن حوشب: ما شبهت الحسن إلا بنبي أقام في قومه ستين عاماً.

الشعبي: ما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقاريف.

قصد الحسن والشعبي ابن هبيرة، فكان الشعبي يخف للحسن ويعاطيه؛ فقال له ابنه: يا أبت، إني أراك تصنع بذا الشيخ شيئاً لم أرك تصنعه بأحد؛ قال: يا بني، قد أدركت سبعين من أصحاب النبي ﷺ، فلم أر أحداً أشبه بهم من هذا الشيخ.

وقال أبو بردة بن نار صاحب رسول الله ﷺ: ما رأيت أحداً، لم يصحب النبي ﷺ، أشبه بمن صحبه من صاحبكم هذا، يعني الحسن، ولو

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي، ١/ ١٨٨.

(٢) تهذيب الكمال للمزي، ٦/ ١٠٧.

أنه أدرك أصحاب رسول الله ﷺ لاحتاجوا إلى رأيه، وما سمع أحد كلامه إلا أزدرى كلام غيره.

قال أبو العباس السفاح لأبي بكر الهذلي: بم بلغ حسنكم ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله وهو ابن ثنتي عشرة سنة، لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهماً في تجارة قط، ولم يل عملاً لسلطان، ولم يأمر بشيء حتى يفعله، ولم ينه عن شيء حتى يدعه؛ قال السفاح: بهذا بلغ.

وكانت أم سلمة تخرجه إلى الصحابة وهو صغير فكانوا يدعون له. ودعا له عمر بن الخطاب فقال: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس.

وسمعت عائشة كلامه فقالت: من هذا الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء؟!.

وقيل للمنصور: لا نعلم أحداً ينتحله أهل المذاهب كلها غير عمر بن عبد العزيز والحسن، فقال: تلك نهاية الفضل.

دخل محمد بن أبي علقمة على عبد الملك بن مروان فقال: من سيد الناس بالبصرة؟ فقال: الحسن، قال: مولى أو عربي؟ قال: مولى، قال: ثكلتك أمك مولى ساد العرب؟ قال: نعم؛ قال: بم؟ قال: أستغنى عما في أيدينا من الدنيا وأفتقرنا إلى ما عنده من العلم. قال: صفه لي؛ قال: آخذ الناس بما أمر، وأنهاهم عما نهى عنه.

الجاحظ: كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال: فلان أزهد الناس إلا الحسن، وأفقه الناس إلا الحسن، وأنصح الناس إلا الحسن، وأخطب الناس إلا الحسن[1].

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري، ١/ ١٢٩.

ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها:

وعى الحسن البصري كتاب الله، وتشبع من سنة رسول الله ﷺ، ثم عمل بما علم، ففاضت أنوارهما على قلبه، ونطق بهما لسانه، وظهرت آثارهما في كلامه.

يقول الأعمش: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها، وكان إذا ذكر الحسن عند أبي جعفر الباقر، قال: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء.

وقال: سألت الحسن عن شيء، فقلت: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا. فقال: وهل رأيت فقيهاً بعينك! إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه.

وعن الحسن، قال: ابن آدم، السكين تحد، والكبش يعلف، والتنور يسجر[١].

وقال أبو زرعة الرازي: كل شيء يقول الحسن فيه: قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلاً ثابتاً، ما خلا أربعة أحاديث[٢].

وحدث الحسن بحديث فقال له رجل: يا أبا سعيد عمَّن؟ فقال: وما تصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك موعظته وقامت عليك حجته.

وقال لفرقد بن يعقوب: بلغني أنك لا تأكل الفالوذج، فقال: يا أبا سعيد، أخاف ألا أؤدي شكره، قال الحسن: يا لكع، هل تقدر تؤدي شكر الماء البارد الذي تشربه؟

وقيل للحسن: إن فلاناً اغتابك، فبعث إليه طبق حلوى وقال: بلغني أنك أهديت إلي حسناتك فكافأتك.

---

(١) الزهد لأحمد، ٢٧٠، والحلية لأبي نعيم، ٢/ ١٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧٨، أورد بعضه أحمد في الزهد، ٢٧٩.

وقريب من هذا قول سفيان بن الحسين، قال: كنت جالساً عند إياس بن معاوية فنلت من إنسان، فقال: هل غزوت العام الترك والروم ولم يسلم منك أخوك المسلم.

وسمع رجلاً يشكو عليه إلى آخر فقال: أما إنك تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك[1].

الحسن جمع العمل إلى العلم:

إن من أعظم ثمار العلم: العمل به، وذكر الخطيب البغدادي في جامعه أن علياً قال «هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل». وهذا اللفظ بنحوه مروي عن سفيان الثوري رحمه الله. قال تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

فعلى طالب العلم أن يعمل بما علم، ويطبق ما حفظ، لكيلا يكون علمه وبالاً عليه يوم القيامة، ولأن أول من تسعر بهم النار كما جاء في الحديث عالم لم يعمل بعلمه.

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عبَّاد الوثن

لم يكن الحسن يغفل عن هذه المعاني، وذلك بشهادة القاصي والداني.

قال خالد بن صفوان: لقيت مسلمة بن عبد الملك، فقال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر، قام به، وإن قام على

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/ ٧٠.

أمر، قعد عليه، وإن أمر بأمر، كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء، كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه. قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم؟[١].

قال ابن المبارك: حدثنا طلحة بن صبيح، عن الحسن، قال: المؤمن من علم أن ما قال الله كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملاً، وأشد الناس وجلاً، فلو أنفق جبلاً من مال، ما أمن دون أن يعاين، لا يزداد صلاحاً وبراً إلا ازداد فرقاً، والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيغفر لي، ولا بأس علي، فيسيء العمل، ويتمنى على الله[٢].

كما جمع بين علم الظاهر والباطن:

قال أبو سعيد بن الأعرابي في طبقات النساك: كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن، ويسمعون كلامه، ويذعنون له بالفقه في هذه المعاني خاصة، وكان عمرو بن عبيد، وعبد الواحد بن زيد من الملازمين له، وكان له مجلس خاص في منزله، لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن، فإن سأله إنسان غيرها، تبرم به، وقال: إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر[٣].

بذل الحسن البصري النصيحة للمسلمين:

النصيحة تنطلق من حُب الناصح لمن حوله، وشفقته عليهم، ورغبته في إيصال الخير إليهم، ودفع الشر والمكروه عنهم، ولهذا قال ابن الأثير: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي: إرادة الخير للمنصوح له.

---

(١) الحلية لأبي نعيم، ٢/ ١٤، وأورده الفسوي في المعرفة والتاريخ، ٢/ ٥١، ٥٢.
(٢) الحلية لأبي نعيم، ٢/ ١٥٣، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٨٦.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٧٩.

وقد أخذ رسول الله ﷺ البيعة على أصحابه ببذل النصح للمسلمين، قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم.

ومن كان باذلاً للنصيحة راغباً في إيصال الخير إلى الناس فهو من خلفاء الله في الأرض، كما قال الحسن رحمه الله: ما زال لله تعالى نصحاء، ينصحون لله في عباده، وينصحون لعباد الله في حق الله، ويعملون لله تعالى في الأرض بالنصيحة، أولئك خلفاء الله في الأرض.

كان الحسن ناصحاً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

يقول فضيل بن جعفر: خرج الحسن من عند ابن هبيرة، فإذا هو بالقراء على الباب، فقال: ما يجلسكم ها هنا؟!، تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء، أما والله ما مجالستهم مجالسة الأبرار. تفرقوا، فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد فرطحتم نعالكم، وشمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء، فضحكم الله، والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيكم، أبعد الله من أبعد[1].

وكان في جنازة وفيها نوائح، ومعه رجل، فهمَّ الرجل بالرجوع فقال له الحسن: يا أخي إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً أسرع ذلك في دينك[2].

الحسن البصري ووالي العراق ابن هبيرة:

لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان، وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك، استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٨٦.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/ ٧٠.

والشعبي؛ وذلك في سنة ثلاث ومئة فقال لهم: إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون فيكتب إلي بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فما ترون؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية.

فقال ابن هبيرة: ما تقول يا حسن؟ فقال: يا ابن هبيرة! خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك؛ يا ابن هبيرة! إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فبكى عمر وقام بعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، فأكثر منها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد فقال: يا أيها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله على خلقه فليفعل، فو الذي نفسي بيده ما علم منه الحسن شيئاً فجهلته، ولكن أردت وجه ابن هبيرة فأقصاني الله منه[١].

قبوله للنصح:

كان الحسن يقص في الحج، فمر به علي بن الحسين عليه السلام، فقال له: يا شيخ، أترضى نفسك للموت؟ قال: لا، قال: فلله في أرضه معاد غير هذا البيت؟ قال: لا، قال: فثم دار للعمل غير هذه الدار؟ قال: لا، قال: فعملك للحساب؟ قال: لا، قال: فلم تشغل الناس عن طواف البيت؟ قال: فما قص الحسن بعدها[٢].

---

(١) تهذيب الكمال للمزي، ٦/ ١١٤، وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/ ٧٢.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/ ٧٠.

موقف الحسن البصري مع ابن سيرين:

كان بين الحسن البصري وبين محمد بن سيرين هجرة، فكان إذا ذكر ابن سيرين عند الحسن يقول: دعونا من ذكر الحاكة، وكان بعض أهل ابن سيرين حائكاً، فرأى الحسن في منامه كأنه عريان، وهو قائم على مزبلة يضرب بالعود، فأصبح مهموماً برؤياه، فقال لبعض أصحابه: امض إلى ابن سيرين، فقص عليه رؤياي على أنك أنت رأيتها، فدخل على ابن سيرين وذكر له الرؤيا فقال ابن سيرين: قل لمن رأى هذه الرؤيا، لا تسأل الحاكة عن مثل هذا.

فأخبر الرجل الحسن بمقالته، فعظم لديه، وقال: قوموا بنا إليه، فلما رآه ابن سيرين، قام إليه وتصافحا وسلم كل واحد منهما على صاحبه، وجلسا يتعاتبان، فقال الحسن: دعنا من هذا، فقد شغلت الرؤيا قلبي.

فقال ابن سيرين: لا تشغل قلبك، فإن العري عري من الدنيا، ليس عليك منها علقة، وأما المزبلة فهي الدنيا، وقد انكشفت لك أحوالها، فأنت تراها كما هي في ذاتها، وأما ضربك بالعود، فإنه الحكمة التي تتكلم بها وينتفع بها الناس. فقال له الحسن: فمن أين لك أني أنا رأيت هذه الرؤيا؟ قال ابن سيرين: لما قصها عليَّ فكرت، فلم أر أحداً يصلح أن يكون رآها غيرك[1].

توبة الفرزدق على يد الحسن البصري:

قال إياس بن أبي تميمة: شهدت الحسن في جنازة أبي رجاء على بغلة، والفرزدق إلى جنبه على بعير، فقال له الفرزدق: قد استشرفنا الناس، يقولون: خير الناس، وشر الناس.

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي، ١٢/ ١٩١، مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي، ١/ ١٨٣.

قال: يا أبا فراس، كم من أشعث أغبر ذي طمرين خير مني، وكم من شيخ مشرك أنت خير منه. ما أعددت للموت؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. قال: إن معها شروطاً، فإياك وقذف المحصنة. قال: هل من توبة؟ قال: نعم[١].

ورعه في نقل الحديث:

عن سهل بن الحصين الباهلي، قال: بعثت إلى عبد الله بن الحسن البصري: ابعث إلي بكتب أبيك. فبعث إلي: أنه لما ثقل، قال لي: اجمعها لي، فجمعتها له، وما أدري ما يصنع بها، فأتيت بها، فقال للخادم: اسجري التنور. ثم أمر بها، فأحرقت غير صحيفة واحدة، فبعث بها إلي، وأخبرني أنه كان يقول: اروِ ما في هذه الصحيفة. ثم لقيته بعد، فأخبرني به مشافهة بمثل ما أدى الرسول[٢].

حسن الخاتمة والوفاة:

قال رجل قبل موت الحسن لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة بالمسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن.

خالد بن خداش: حدثنا صالح المري، عن يونس، قال: لما حضرت الحسن الوفاة، جعل يسترجع، فقام إليه ابنه، فقال: يا أبت، قد غممتنا، فهل رأيت شيئا؟ قال: هي نفسي، لم أصب بمثلها.

قال هشام بن حسان: كنا عند محمد عشية يوم الخميس، فدخل عليه رجل بعد العصر، فقال: مات الحسن. فترحم عليه محمد، وتغير لونه،

---

(١) انظر طبقات ابن سلام، ٣٣٥، والكامل للمبرد، ١/ ١١٩.

(٢) ابن سعد في الطبقات، ٧/ ١٧٤، والمنتخب من ذيل المذيل، ٦٣٩.

وأمسك عن الكلام، فما تكلم حتى غربت الشمس، وأمسك القوم عنه مما رأوا من وجده عليه.

قلت: وما عاش محمد بن سيرين بعد الحسن إلا مئة يوم.

قال ابن علية: مات الحسن في رجب، سنة عشر ومئة.

وقال عبد الله بن الحسن: إن أباه عاش نحواً من ثمان وثمانين سنة.

قال حميد الطويل: توفي الحسن عشية الخميس، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة، ودفناه فتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر.

ويروى: أنه أغمي عليه، ثم أفاق إفاقة، فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون، ومقام كريم[1].

شيء من كلامه ومواعظه:

عاش الحسن نحو ثمانين عاماً ملأ خلالها الدنيا علماً وفقهاً وحكمة.

وكان من أجل ما ورثه للأجيال رقائقه ومواعظه التي هزت ومازالت تهز القلوب وتستدر الشجون وتدل التائهين على الله وتنبه الغافلين إلى حقيقة الدنيا وحال الناس معها.

حدثنا عبد المؤمن بن عبيد الله، عن الحسن، قال: يا بن آدم! عملك عملك، فإنما هو لحمك ودمك، فانظر على أي حال تلقى عملك، إن لأهل التقوى علامات، يعرفون بها، صدق الحديث، ووفاء بالعهد، وصلة

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/ ٥٨٧، وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/ ٧٢.

الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وحسن الخلق، وسعة الخلق فيما يقرب إلى الله، يا بن آدم! إنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئاً، وإن هو صغر، فإنك إذ رأيته سرك مكانه، ولا تحقرن من الشر شيئاً، فإنك إذا رأيته ساءك مكانه، رحم الله رجلاً كسب طيباً وأنفق قصداً، وقدم فضلاً ليوم فقره وفاقته، هيهات، هيهات، ذهبت الدنيا بحال بالها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناقكم، أنتم تسوقون الناس، والساعة تسوقكم، وقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون، والمعاينة فكأن قد، إنه لا كتاب بعد كتابكم، ولا نبي بعد نبيكم، يا بن آدم، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبيعن آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً[1].

روى أبو عبيدة الناجي: أنه سمع الحسن يقول: يا بن آدم، إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك فتصلحه، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله تعالى من كان كذلك.

عن يحيى بن المختار عن الحسن قال: إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله ﷻ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك،

---

(١) تهذيب الكمال للمزي، ٦/١١٦.

ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا؟

والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ﷻ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه.

وعن مبارك بن فضالة قال: سمعت الحسن وقال له شاب: أعياني قيام الليل. فقال: قيدتك خطاياك.

روى أبو عبيدة الناجي أنه سمع الحسن بن أبي الحسن يقول: حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة وإنها تنازع إلى الشر غاية، وإنكم إن لم تقاربوها لم تبق من أعمالكم شيئاً، فتصبروا وتشددوا فإنما هي ليال تعد، وإنما أنتم ركب وقوف، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم، إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم وإنما صبر على هذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته[١].

وقال حزم بن أبي حزم: سمعت الحسن يقول: بئس الرفيقان: الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقاك.

وعن صالح المري، عن الحسن، قال: ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم، ذهب بعضك[٢].

عن أبي بكر الهذلي، قال: كنا عند الحسن، فأتاه آت فقال: يا أبا

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٣٥٨، المنتظم لابن الجوزي، ٢/ ٣٧٨.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ١٤٨.

سعيد، دخلنا آنفاً على عبد الله بن الأهتم، فإذا هو يجود بنفسه، فقلنا: أبا معمر كيف تجدك؟ قال: أجدني والله وجعاً، ولا أظنني إلا لما بي، ولكن ما تقولون في مئة ألف في هذا الصندوق، لم تؤد منها زكاة؟ ولم توصل منها رحم؟ قلنا: يا أبا معمر، فلمن كنت تجمعها؟ قال: كنت والله أجمعها لروعة الزمان، وجفوة السلطان، ومكاثرة العشيرة.

فقال الحسن: البائس، انظروا أنى أتاه شيطانه فحذره روعة رفاته، وجفوة سلطانه، عما استودعه الله إياه، وعمره فيه، خرج ـ والله ـ منها سليباً حريباً ذميماً مليماً، إيهاً عنك أيها الوارث، لا تخدع كما خدع صويحبك أمامك، أتاك هذا المال حلالاً، فإياك وإياك أن يكون وبالاً عليك، أتاك ـ والله ـ ممن كان له جموعاً منوعاً، يدأب فيه الليل والنهار، ويقطع فيه المفاوز والقفار، من باطل جمعه، ومن حق منعه، جمعه فأوعاه، وشده فأوكاه، لم تؤد منه زكاة ولم توصل منه رحم، إن يوم القيامة ذو حسرات، وإن أعظم الحسرات غداً أن يرى أحدكم ماله في ميزان غيره، أو تدرون كيف ذاكم؟ رجل آتاه الله مالاً، فأمره بإنفاقه في صنوف حقوق الله، فبخل به، فورثه هذا الوارث، فهو يرى ماله في ميزان غيره، فيا لها عثرة لا تقال، وتوبة لا تنال[1].

(١) تهذيب الكمال للمزي، ٦/ ١١٧.

سيد المسلمين عطاء بن أبي رباح

نسبه ومولده:

هو الإمام العلم، والثقة الثبت، والحجة الحافظ، والفقيه المفسر، مفتي أهل مكة، ومحدّثهم.

عطاء بن أبي رباح، واسم أبي رباح: أسْلم، وكنية عطاء: أبو محمد المكي القريشي، مولى ابن خثيم القريشي الفهري.

وعطاء معدود في كبار التابعين، ولد في آخر خلافة عثمان بن عفان، ونشأ بمكة وسمع العبادلة الأربعة: ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وابن أبي العاص، وجماعات أخرى من الصحابة رضي الله عنهم[1].

قال: ابن قيس عن عطاء قال: أعقل قتل عثمان[2].

صفاته الخَلقية:

يقول بعض أهل التاريخ: عيوب الخلق كلها اجتمعت في عطاء بن رباح.

فكان عطاء: أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمي، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/ ٤٦٨.

قال أبو داود: أبوه نوبي، وكان يعمل المكاتل، وكان عطاء أعور، أشل، أفطس، أعرج، أسود. قال: وقطعت يده مع ابن الزبير.

وقال أبو المليح الرقي: رأيت عطاء أسود، يخضب بالحناء[١].

وقال سليمان بن رفيع: دخلت المسجد الحرام والناس مجتمعون على رجل فاطلعت فإذا عطاء بن أبي رباح جالس كأنه غراب أسود[٢].

نشأته وطلبه للعلم:

أهل العلم هم أهل الدرجات العليا فى الدنيا والآخرة، ولهذا إذا ذُكر العلماء أثنى الناس عليهم هذا فى الدنيا، وفى الآخرة يرفعهم الله تعالى درجات فى حسب ما قاموا به من أداء هذه الشريعة، والعمل بما تعلموا، والدعوة إلى ما تعلموه، فالله تعالى يرفع أهل العلم درجات فى الدنيا والآخرة ما لا يرفعه الملك ولا المال ولا النسب ولا غيرها.

قال ابن عباس: العلماء فوق المؤمنين مئة درجة، ما بين الدرجتين مئة عام.

وفي صحيح مسلم: أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين**»[٣].

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٠، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٦، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٧٥.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣/ ٢٦٢.

(٣) صحيح مسلم، ١/ ٥٥٩، رقم ٢٦٩.

وقال أبو العالية: كنت آتي ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش، فيأخذ بيدى فيجلسني معه على السرير، فتغامز بي قريش، ففطن لهم ابن عباس، فقال: كذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرّة.

ولقد كان عطاء رحمه الله مولى من الموالي، لكن الله رفع قدره وأعلى شأنه بما حمله من علم في صدره، ومن خشية في قلبه، فلقد كان عطاء بن أبي رباح في صغره عبداً مملوكاً لامرأة من أهل مكة، غير أن الله سبحانه وتعالى أكرم الغلام الحبشي بأن وضع قدميه منذ نعومة أظفاره في طريق العلم، فقسَّم وقته أقساماً ثلاثة: قِسْمٌ جعله لسيدته يخدمها فيه أحسن ما تكون الخدمة، ويؤدّي لها حقوقها عليه أكمل ما تؤدّى الحقوق، وقِسْم جعله لربّه يفرُغُ فيه لعبادته أصفى ما تكون العبادة وأخلصها لله تعالى، وقِسْمٌ جعله لطلب العلم حيث أقبل على من بقي حياً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطفق ينهل من مناهلهم الغزيرة الصافية، فأخذ عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، حتى امتلأ صدره علماً وفقهاً ورواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولما رأت السيدة المكية أن غلامها قد باع نفسه لله تعالى، وعكف على طلب العلم، تخلت عن حقها فيه وأعتقت رقبته تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى لعل الله ينفع به الإسلام والمسلمين.

ومنذ ذلك اليوم اتخذ عطاء بن أبي رباح البيت الحرام مقاماً له، فجعله داره التي يأوي إليها، ومدرسته التي يتعلم فيها، ومصلاه الذي يتقرب فيه إلى الله بالتقوى والطاعة[1].

---

(١) صور من حياة التابعين، د. عبد الرحمن رأفت باشا، ص١٠، وانظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٧٥ وما بعدها.

عن أحمد بن حنبل قال: العلم خزائن يقسم الله لمن أحب، لو كان يخص بالعلم أحد؛ لكان بيت النبي ﷺ أولى، كان عطاء بن أبي رباح حبشياً، وكان يزيد بن أبي حبيب نوبياً أسود، وكان الحسن مولى للأنصار، وكان ابن سيرين مولى للأنصار[١].

أهم مناقبه:

إخلاصه وعبادته:

العلم عبادة من العبادات، وقربة من القرب، فإنْ خلصت فيه النية قُبِل وزكا، ونمت بركته، وإن قصد به غير وجه الله تعالى حبط وضاع، وخسرت صفقته.

روى الإمام الترمذي في جامعه: قال رسول الله ﷺ يقول: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»[٢].

فهذا الحديث قاضٍ بأنَّ على طالب العلم أن يصحح نيته في طلبه، فلا يكون إلا لله وحده، يبتغي عنده الرضوان، ويرجو لديه الثواب، لا ليرتفع به في أعين الناس، ويعلو به فوق أعناقهم.

أما عطاء ـ رحمه الله ـ فكان تقياً، عابداً، مخلصاً، كثير الصلاة، وافر الخشوع، متعلقاً ببيت الله لا يكاد يخرج منه.

فعن عبد الرحمن بن سابط قال: والله ما أرى إيمان أهل الأرض يعدل إيمان أبي بكر، ولا أرى إيمان أهل مكة يعدل إيمان عطاء[٣].

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي، ١/ ١٧٢، صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٤.

(٢) سنن الترمذي، ٥/ ٣٢.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩٥.

قال سفيان عن سلمة: ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله غير هؤلاء الثلاثة: عطاء، وطاوس، ومجاهد.

وقال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة[١].

وعن ابن جريج، قال: لزمت عطاء ثماني عشرة سنة، وكان بعد ما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مئتي آية من البقرة وهو قائم، لا يزول منه شيء، ولا يتحرك[٢].

وقال عبد الرزاق: أخذ أهل مكة الصلاة عن ابن جريج، وأخذها ابن جريج عن عطاء، وأخذها عطاء عن ابن الزبير، وأخذها ابن الزبير من أبي بكر الصديق، وأخذها أبو بكر الصديق عن النبي ﷺ وأخذها النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام، قال عبد الرزاق: وما رأيت أحداً أحسن صلاة من ابن جريج، كان يصلي ونحن خارجين فنرى كأنه اصطوانة، وما التفت يميناً ولا شمالاً[٣].

وعن أبي معاوية المغربي قال: رأيت عطاء بن أبي رباح بين عينيه أثر السجود[٤].

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر، ٧/ ١٨١، المعرفة والتاريخ للفسوي، ١/ ١٧٢، صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٥، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٩، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٤، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩٧.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٧، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٠.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٦٩.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/ ٤٦٩.

وقال ابن عيينة: قلت لابن جريج: ما رأيت مصلياً مثلك، قال: لو رأيت عطاء[١].

وعن الأوزاعي قال: ما رأيت أحداً أخشع لله من عطاء، ولا أطول حزناً من يحيى بن أبي كثير[٢].

زهده وعفته:

إن عطاء قد شغلته الآخرة عن الدنيا، فهو يراها سريعة الزوال، وأن الآخرة هي المستقر والمآل؛ لذلك كان متقللاً من الدنيا، غير راغب بها، متزوِّداً للعقبى والآخرة.

قال عمر بن ذر: ما رأيت مثل عطاء بن أبي رباح، وما رأيت عليه قميصاً قط، ولا رأيت عليه ثوباً يساوي خمسة دراهم[٣].

وقال إسماعيل بن عياش: قلت لعبد الله بن عثمان بن خيثم: ما كان معاش عطاء؟ قال: صلة الإخوان، ونيل السلطان[٤].

وقال عمران بن حدير: رأيت عمامة عطاء مخرقةً، فقلت: أعطيك عمامتي. فقال: إنا لا نقبل إلا من الأمراء. قلت: يريد بيت المال[٥].

موقف يظهر احتسابه طمعاً بما عند الله:

قال يعقوب بن عطاء: كان عطاء ـ أبي ـ يريد المسجد فيلبس ثيابه، فيرى أن ليس عنده أحد، قال: وهو لا يبصر من أحد شقتيه، قال: فقلت

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ٣٦.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٥.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٧، صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٥، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٥.

(٤) تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨٠.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٣٨٠.

له: يا أبه، كأنك تشتكي عينك هذه؟! قال: وفطنت لها؟ قلت: نعم، قال: ما أبصرت بها منذ أربعين سنة وما علمت أمك.

وقال يعقوب بن عطاء: كان عطاء يوماً متكئاً على وسادة، فأخرج إحدى عينيه، فقال: ناولني ذاك الشيء، قال: قلت: هو ذا بين يديك، فقال: ما أراه، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون أما تراه إلى جنبك! قال: أي بني، وما تعجب من هذا، والله لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما علم بها أحد[١].

أدبه مع العلماء ومع جلسائه:

عَلِمَ عطاء أن أولى الناس بالاحترام والتوقير من كان حظه من الشرع أوفر، ونصيبه من العمل الصالح أكبر، فكان عطاء يُجِلُّ العلم وأهله، ويستشعر مهابتهم وفضلهم.

يقول سعيد بن عبد العزيز: كان عطاء بن أبي رباح إذا جاء سيلمان بن موسى يقول: كفوا عن المسألة فقد جاءكم من يكفيكم المسألة[٢].

ومن أدبه مع جليسه كما يقول: إنَّ الرجل ليحدثني بالحديث، فأُنصت له، كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[٣].

وعن معاذ بن سعيد قال: كنا عند عطاء بن أبي رباح، فتحدث رجل بحديث، فاعترض له آخر في حديثه، فقال عطاء: سبحان الله ما هذه الأخلاق، ما هذه الأخلاق، إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم منه به فأريه أني لا أحسن منه شيئاً.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٤٠٠، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٨.

(٢) المتفق والمفترق للخطيب البغدادي، ١/ ٢٧٢.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٦، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٤٠٠.

وعن عثمان بن الأسود قال: قلت لعطاء: الرجل يمر بالقوم فيقذفه بعضهم، أيخبره؟ قال: لا، المجالس بالأمانة[١].

وقال يعقوب بن عطاء: كان رجل يحدث أبي بحديث، وكان أبي أحفظ لذلك الحديث من الرجل، قال: فجعل أبي يصغي إليه، فقلت أنا للرجل: إن أبي يحفظ هذا الحديث، فصاح أبي وقال: مه يا بني، فلما قام الرجل قال لي أبي: يا بني لم تبغّض أباك إلى جليسه؟ لقد سمعت هذا الحديث قبل أن يولد أبوه، ولقد كان يحدث أخاه بالحديث، والذي يحدّث بالحديث أحفظ من الذي يحدّثه، فما يزيده على أن يقول: ما أحسنه، إرادة أن يسرّه[٢].

التحري في العلم والتثبت في الأخبار:

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التّوراة، فقال: أجل، والله إنّه لموصوف في التّوارة بصفته في القرآن: (يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وحرزاً للأمّيين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السّيئة بالسّيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلّا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً).

قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار فسألته، فما اختلفا في حرف، إلّا أنّ كعباً يقول بلغته: أعيناً عموماً، وآذاناً صموماً، وقلوباً غلوفاً[٣].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٥.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٤٠١، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨٣.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، ١/ ٢٠.

الصحابة ومن بعدهم من العلماء يشهدون لعطاء بالعلم والفضل:

قال عطاء: أدركت مئتين من أصحاب رسول الله ﷺ فكان عطاء ممن شهد له صحابة النبي عليه الصلاة والسلام بالعلم والفضل.

فعن عمر بن سعيد بن أبي حسين، عن أمه: أنها أرسلت إلى ابن عباس تسأله عن شيء، فقال: يا أهل مكة! تجتمعون عليّ وعندكم عطاء!

وقال قبيصة: عن سفيان بهذه، ولكن جعله عن ابن عمر[١].

قال أبو عاصم الثقفي: سمعت أبا جعفر الباقر يقول للناس ـ وقد اجتمعوا ـ: عليكم بعطاء، هو ـ والله ـ خير لكم مني.

وعن أبي جعفر، قال: خذوا من عطاء ما استطعتم.

وعن قتادة، قال: قال لي سليمان بن هشام: هل بالبلد ـ يعني: مكة ـ أحد؟ قلت: نعم، أقدم رجل في جزيرة العرب علماً. فقال: من؟ قلت: عطاء بن أبي رباح.

وقال قتادة: إذا اجتمع لي أربعة، لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبال من خالفهم: الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء: هؤلاء أئمة الأمصار[٢].

وقال رجل لابن جريج: لولا هذان الأسودان ما كان لنا فقهٌ: مجاهد، وعطاء، فقال: فض الله فاك، تقول لهما الأسودان[٣]!

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨، المعرفة والتاريخ للفسوي، ١/ ١٧٢، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٧، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨١، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٧.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٧.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٣٨٠.

وقال أسلم المنقري: جاء أعرابي يسأل، فأُرشد إلى سعيد بن جبير، فجعل الأعرابي يقول: أين أبو محمد؟ فقال سعيد: ما لنا ها هنا مع عطاء شيء[١].

وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم، يخيل لنا أنه يؤيَّد[٢].

وعن أبي حنيفة، قال: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء بن أبي رباح، ولا لقيت أكذب من جابر الجعفي، ما أتيته قط بشيء إلا جاءني فيه بحديث، وزعم أن عنده كذا وكذا ألف حديث من رأيي عن النبي ﷺ لم ينطق بها.

وقال محمد بن عبد الله الديباج: ما رأيت مفتياً خيراً من عطاء، إنما كان مجلسه ذكر الله لا يفتر، وهم يخوضون، فإن تكلم أو سئل عن شيء، أحسن الجواب.

وروى عن الأوزاعي، قال: مات عطاء بن أبي رباح يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس[٣].

---

(١) التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، ٢/ ١٠٠٢، المعرفة والتاريخ للفسوي، ١/ ١٧٢، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨١، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٨، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩١، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، ٦/ ٣٣٠.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨١، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٨.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨١، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٨، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩١.

ويحكي عن الشافعي قال: ليس من التابعين أحد أكثر اتباعاً للحديث من عطاء[١].

ابن عباس يُري عطاء امرأة من أهل الجنة:

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أُريك إنساناً من أهل الجنة؟ قال: فأراني حبشية صفراء عظيمة، قال: هذه سعيرة الأسدية، أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن بي هذه الموتة ـ تعني الجنون ـ فادع الله أن يشفيني مما بي. فقال لها رسول الله ﷺ: «**إن شئت دعوت الله ﷻ أن يعافيك مما بك، ويكتب لك حسناتك وسيئاتك، وإن شئت فاصبري ولك الجنة**». فاختارت الصبر والجنة[٢].

موقف لعطاء يظهر فيه عزة العلماء:

قال عثمان بن عطاء الخراساني: انطلقت مع أبي وهو يريد الخليفة هشام بن عبد الملك، فلما قربنا؛ إذا بشيخ أسود على حمار، عليه قميص دنس، وجبّة دنسة، وقلنسوة دنسة، وركاباه من خشب. فضحكت وقلت لأبي: من هذا الأعرابي؟ قال: اسكت، هذا سيد فقهاء الحجاز، هذا عطاء بن أبي رباح، فلما قرب نزل أبي عن بغلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا، فانطلقا حتى وقفا بباب هشام، فلما رجع أبي سألته، فقلت: حدثني ما كان منكما. قال: لما قيل لهشام عطاء بن أبي رباح بالباب أذن له، فوالله ما دخلت إلا بسببه. فلما رآه هشام قال:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩٥.

(٢) سنن ابن ماجه، ١/ ٤٨٤، صحيح ابن حبان، ٧/ ١٦٩، أسد الغابة لابن الأثير، ٣/ ٣٦٥.

مرحباً مرحباً ها هنا! ها هنا، فرفعه حتى مست ركبته ركبته، وعنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا.

فقال هشام: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين، أهل الحرمين، أهل الله، وجيران رسول ﷺ، يقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم.

قال: نعم، يا غلام، أكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاءين، وأرزاقهم لسنة، ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد، أصل العرب، تردُّ فيهم فضول صدقاتهم، قال: نعم، يا غلام، اكتب بأن ترد فيهم صدقاتهم.

قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم، ويقاتلون عدوكم، قد أجريتم لهم أرزاقاً تدرها عليهم، فإنهم إن هلكوا أغرتم، قال: نعم، اكتب بحمل أرزاقهم إليهم يا غلام.

هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم يحيى صغارهم ولا يتعتع كبارهم، ولا يكلَّفون إلا ما يطيقون، قال: نعم، اكتب لهم يا غلام.

هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، ولا والله ما معك ممن ترى أحداً. قال: فأكب هشام، وقام عطاء.

فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه، أدراهم

أم دنانير، فقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا. فقال: ﴿...لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال: ثم خرج عطاء في هذه السنة، وقيل: سنة أربع عشرة، وهو ابن ثمان وثمانين سنة. وقيل: بل عاش مئة سنة.

وعن عمر بن مروان بن الحكم، أبي حفص: لم يكن في بني أمية بمصر في أيامه أفضل منه، كان خلفاء بني أمية يكتبون إلى أمراء مصر: لا تعصوا له أمراً.

وكان يأتي عجائز في خراب المعافر، فيدفع إليهن ما يكفيهن طوال السنة[1].

الخليفة بين يدي عطاء:

هذا سليمان بن عبد الملك سابع خلفاء بني أمية الذي أخرج الخلافة من أولاده، وعهد بها للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ كان يطوف بالبيت العتيق مكشوف الرأس حافي القدمين ليس عليه إلا إزار ورداء، شأنه في ذلك كشأن بقية رعاياه، وكان من خلفه ولداه وهما غلامان كطلعة البدر بهاء وكأكمام الورد نضارة وطيباً. وما إن انتهى من طوافه حتى مال على رجل من خاصّته وقال: أين صاحبكم؟

فقال: إنه هناك يصلي، وأشار إلى الناحية الغربية من المسجد الحرام، فاتجه وولداه إلى حيث يجلس عطاء بن أبي رباح التابعي الجليل رضي الله عنه، وأراد معاونو الخليفة وخاصته أن يفسحوا له الطريق ويدفعوا عنه أذى الزحام فثناهم عن ذلك وقال: هذا مقام يستوي فيه الملوك والسُّوقَة

(١) المنتظم لابن الجوزي، ٢/ ٣٨٩.

ولا يفضُلُ فيه أحدٌ أحداً إلا بالقبول والتقوى، ورُبَّ أشعث أغبر تكاثر عليه الغُبار قدِمَ على الله فتقبَّله بما لم يتقبل به الملوك.

ثم مضى سليمان نحو عطاء ﷺ فوجده ما يزال داخلاً في صلاته، غارقاً في ركوعه وسجوده، والناس جلوس وراءه وعن يمينه وشماله، فجلس حيث انتهى به المجلس، وأجلس معه ولديه.

وانتهى الإمام من صلاته، ومال بشقّه ـ أي: بطرفه ـ على الجهة التي فيها الخليفة، فحيّاه سليمان بن عبد الملك، فرد التحية بمثلها، وأقبل عليه الخليفة وجعل يسأله عن مناسك الحج منسكاً منسكاً، وهو يفيض بالإجابة، ويُفصّل القول فيها تفصيلاً، ويُسند كل قول بقوله إلى رسول الله ﷺ.

ولما انتهى الخليفة من المسائل قال له: جزاك الله خيراً، فقام الثلاثة نحو المسعى وسمعوا منادياً ينادي: لا يُفتي الناس في هذا المقام إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يوجد فعبد الله بن أَبِي نَجِيْحٍ.

فقال الولدان لأبيهما: كيف يأمر عامل الخليفة الناس بأن لا يستفتوا أحداً غير عطاء بن أبي رباح وصاحبه، ثم جئنا نستفتي هذا الرجل الشيخ الحبشي أسود البشرة مفلفل الشعر الذي لم يأبه للخليفة؟

فقال عندها سليمان لولده: هذا الذي رأيته يا بنيَّ ورأيت ذلّنا بين يديه هو عطاء بن أبي رباح، صاحب الفتيا في المسجد الحرام، ووارث عبد الله بن عباس في هذا المنصب الكبير، ثم أردف يقول: يا بنيَّ، تعلموا العلم فبالعلم يشرُف الوضيع، وينبه الخامل، ويعلو الأرقاء على مراتب الملوك[1].

---

(١) صور من حياة التابعين، ص٩، وانظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٧٥، صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٥.

ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء:

روى أسلم المنقري، عن أبي جعفر، قال: ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء[١].

وعن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، قال: ما أدركت أحداً أعلم بالحج من عطاء بن أبي رباح[٢].

وقال إبراهيم بن عمر بن كيسان: أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحاج صائحاً يصيح: لا يُفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح[٣].

وعن ابن أبي ليلى، قال: دخلت على عطاء، فجعل يسألني، فكأن أصحابه أنكروا ذلك، وقالوا: تسأله؟! قال: ما تنكرون؟ هو أعلم مني.

قال ابن أبي ليلى ـ وكان عالماً بالحج ـ: قد حج ـ عطاء ـ زيادة على سبعين حجة.

وعن مالك، قال: عمرو بن دينار، ومجاهد، وغيرهما من أهل مكة: لم يزالوا متناظرين حتى خرج عطاء بن أبي رباح إلى المدينة، فلما رجع إلينا، استبان فضله علينا[٤].

عن قتادة قال: كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر، ٧/ ١٨١.

(٢) التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، ٢/ ١٠٠٢، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٧.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٢، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٧، تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٠.

أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بسيرة النبي ﷺ، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام[١].

عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: هل رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا استلموا قبَّلوا أيديهم؟ فقال: نعم، رأيت جابر بن عبد الله، وابن عمر، وأبا سعيد الخدري، وأبا هريرة إذا استلموا قبلوا أيديهم. قلت: وابن عباس؟ قال: نعم، حسبت كثيراً[٢].

قال ابن سعد: انتهت فتوى أهل مكة إليه، وإلى مجاهد، وأكثر ذلك إلى عطاء.

وقال أبو حازم الأعرج: فاق عطاء أهل مكة في الفتوى[٣].

وعن أحمد بن محمد قال: كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس لعطاء بن أبي رباح[٤].

الأئمة الكبار شيخهم عطاء:

- الشافعي:

عن الربيع قال: سمعت الشافعي وسأله رجل عن المشي، فحنث بالمشي إلى الكعبة، فأفتاه بكفارة يمين، فقال له الرجل: بهذا تقول يا أبا

---

(١) طبقات الحفاظ للسيوطي، ١/ ٥، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٢٧٢، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٠.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٧٧.

(٣) التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، ٢/ ١٠٠٢، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٠، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨٧، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٧، تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ٤٥٨.

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٥، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٧، تهذيب التهذيب لابن حجر، ٧/ ١٨١.

عبد الله؟ فقال: هذا قول من هو خير مني. قال: من هو؟ قال: عطاء بن أبي رباح[١].

- الأوزاعي:

حدثنا الأوزاعي، قال: كنت باليمامة وعليها وال يمتحن الناس برجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه منافق، وما هو بمؤمن، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتق والمشي أنه ليسميه منافقاً وما يسميه مؤمناً، فجعلوا له ذلك، قال: فخرجت في ذلك الغور فلقيت عطاء بن أبي رباح فسألته عن ذلك، فقال: ما أرى بذلك بأساً يقول الله ﷻ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨][٢].

أبو حنيفة:

قال أبو حنيفة: لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء، فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً؟ قلت: نعم، قال: فمن أي الأصناف أنت؟ قلت: ممن لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفر أحداً بذنب. فقال لي عطاء: عرفت فالزم[٣].

موقف لأبي حنيفة وحلَّاق عطاء:

قال أبو حنيفة النعمان بن ثابت: أخطأت في خمسة أبواب في المناسك بمكة فعلمنيها حجام، وذلك أني أردت أن أحلق رأسي، فقال لي: أعربي أنت؟ قلت: نعم، وكنت قد قلت له: بكم تحلق رأسي؟

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩٦.
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ٣٦.
(٣) المصدر السابق، ٢/ ٣٧.

فقال: النسك لا يشارط فيه، اجلس، فجلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ لي باستقبال القبلة، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر، فقال: أدر شقك الأيمن من رأسك، فأدرته، وجعل يحلق رأسي وأنا ساكت فقال لي: كبِّر، فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب فقال: أين تريد؟ قلت: رحلي. فقال: صل ركعتين وامض. فقلت: ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلا ومعه علم، فقلت: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا[١]

الحسن البصري:

حكي عن خليفة بن سلام عن يونس قال: سمعت الحسن البصري ذات يوم في مجلسه يقول: اعتبروا من المنافق بثلاث، إن حدَّث كذب، وإن اؤتمن خان، وإن وعد أخلف، فبلغ ذلك عطاء فقال: قد كانت هذه الخلال الثلاث في ولد يعقوب، حدثوه فكذبوه، وائتمنهم فخانوه، ووعدوه فأخلفوه، فأعقبهم الله النبوة، فبلغ الحسن فقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦][٢].

قصة منكرة أكثرت ترددها كتب التاريخ:

عن الزهري قال: قال لي عبد الملك بن مروان: من أين قدمت؟ قلت: من مكة. قال: فمن خلَّفت يسودها؟ قلت: عطاء. قال: أمِن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: فيمَ سادهم؟ قلت: بالدِّيانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا، فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس. قال: فمن العرب، أو الموالي؟ قلت: من الموالي.

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣/ ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٢٦٢.

قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول. قال: فمن العرب، أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، وهو من الموالي. قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن من الموالي. قال: فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي. قال: فمن العرب، أم من الموالي؟ قلت: من العرب. قال: ويلك! فرجت عني، والله ليسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر، والعرب تحتها. قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين، من حفظه، ساد، ومن ضيعه، سقط.

قال الإمام الذهبي: الحكاية منكرة، والوليد بن محمد: واه، فلعلَّها تمت للزهري مع أحد أولاد عبد الملك، وأيضاً ففيها: من يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، وهو من الموالي. فيزيد: كان ذاك الوقت شاباً لا يُعرف بعد، والضحاك، فلا يدري الزهري من هو في العالم، وكذا مكحول يصغر عن ذاك[1].

الورع في الفتوى عند عطاء:

الفتوى من أخطر الأمور وأعظمها، وخاصة إن كانت بغير علم أو نص، وقد قرن الله ـ ﷻ ـ القول عليه بلا علم، بالشرك به، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فلا يحل لأحد أن يفتي بأمر حتى يعلم أن هذه الفتوى هي شرع الله

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٦، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨١.

ﷻ، وحتى تكون عنده أداة وملكة يعرف بها ما دلت عليه النصوص من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وحينئذٍ يفتي.

والمفتي معبر عن الله ﷻ ومبلغ عن رسول الله ﷺ، فإذا قال قولاً وهو لا يعلم أو لا يغلب على ظنه ـ بعد النظر والاجتهاد والتأمل في الأدلة ـ فإنه يكون قد قال على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، قولاً بلا علم، فليتأهب للعقوبة، فإن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨] ولقد كان عطاء من أشد الناس ورعاً في الفتوى إن لم يكن لديه فيها نص، ومع ما بلغه من علم، وما وصل إليه من اجتهاد لم يتجرأ أن يقول برأيه.

يقول مصعب بن حيان أخو مقاتل: كنت عند عطاء بن أبي رباح، فسُئل عن شيء، فقال: لا أدري: نصف العلم، ويقال: نصف الجهل.

وقال عبد العزيز بن رفيع: سئل عطاء عن شيء، فقال: لا أدري. قيل: ألا تقول برأيك؟ قال: إني أستحيي من الله أن يدان في الأرض برأيي[١].

وعن عطاء: أنه كان يطعم عن أبويه وهما ميتان، وكان يفعله حتى مات.

عن يعقوب بن عطاء قال: ما رأيت أبي يتحفظ في شيء ما يتحفظ في البيوع[٢].

عمق فهمه:

قال أبو هزان: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول: من جلس مجلس

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر، ٧/ ١٨١، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨١، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٥.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/ ٤٦٨.

ذكرٍ كفَّر الله عنه بذلك المجلس عشرة مجالس من مجالس الباطل، وإن كان في سبيل الله كفَّر الله بذلك المجلس سبعمئة مجلس من مجالس الباطل. قال أبو هزان: قلت لعطاء: ما مجلس الذكر؟ قال: مجلس الحلال والحرام، وكيف تصلي، وكيف تصوم، وكيف تنكح، وكيف تطلق، وتبيع وتشتري.

وعطاء بن أبي رباح، قال: ما قال عبد قط يا رب يا رب يا رب ثلاث مرات إلا نظر الله إليه، قال: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أما تقرؤون القرآن: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٥][(١)].

وعن ابن جريج قال: قال عطاء: المعتكف كأنه محرم بين يدي الرحمن تعالى يقول: لا أبرح حتى تغفر لي[(٢)].

وقال هشيم بن هشام بن السري: قلت لابن جريج: يا أبا الوليد، ما تقول في رجل يؤدي زكاته في غير مصره ـ بلده ـ قال: قال عطاء: هم المسلمون فأعط حيث أحببت[(٣)].

وعن معقل بن عبيد الله الجزري، قال: قلت لعطاء بن أبي رباح: إن هاهنا قوماً يزعمون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص. فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، فما هذا الهدى الذي زادهم الله؟

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ٣٧.

(٢) تاريخ بغداد للبغدادي، ٦/ ٣٩٩.

(٣) الكنى والأسماء للدولابي، ٤/ ٣٥٥.

فقلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال: وتلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥][١].

عطاء له باع في التفسير وأقواله معتبرة:

قال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب، قال: «**أجل شيبتني هود وأخواتها**».

قال عطاء: أخواتها ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾، ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[٢].

وعن طلحة ـ يعني ابن عمرو ـ عن عطاء في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. قال: لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله التي فرضها الله تعالى عليهم أن يؤدوها في أوقاتها.

عن الأوزاعي، عن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، قال: ذلك في إقامة الحد عليه[٣].

عن ابن أبي نجيح، عن عطاء: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قال: هو ركوب البدن، وشرب لبنها إن احتاج[٤].

نصحه لولاة الأمر:

العلماء هم ورثة الأنبياء، وهم النور لمن يمشي في الظلماء، فالسير على طريقهم أمر حميد ورأي سديد؛ لأنه طريق الأنبياء الذي يرضاه الله

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ٣٧.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ١٧١.
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ٣٦.
(٤) تفسير الطبري، ١٨/ ٦٣٥.

ﷻ، فينبغي للعالم أن لا يضن بنصحه لأئمة المسلمين خاصة، ثم للمسلمين عامة.

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: مناصحة ولاة الأمر لم يختلف العلماء في وجوبها إذا كان السلطان يسمعها ويقبلها[١].

وقال النووي رحمه الله: أما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيهم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم[٢].

وكان عطاء ـ رحمه الله ـ من تلك الكوكبة المخلصة التي لا يضيِّع فرصة في نصح ولاة الأمر في كل ما يخص ولي الأمر نفسه، أو المسلمين، أو غير المسلمين.

ومن نصح عطاء بن أبي رباح أنه دخل على عبد الملك وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة، في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبد الملك، قام إليه، فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟

قال: يا أمير المؤمنين! اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل.

---

(١) الاستذكار، ٨/ ٥٧٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، ٢/ ٢٢٧.

ثم نهض، وقام، فقبض عليه عبد الملك، وقال: يا أبا محمد! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ قال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج. فقال عبد الملك: هذا ـ وأبيك ـ الشرف، هذا ـ وأبيك ـ السؤدد[١].

بشرى يزفها عطاء للمسلمين من فهمه لكتاب الله:

قال عطاء بن أبي رباح: من فوض أمره إلى الله ﷻ فهو داخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ومن أقر بأن الله ربه ومحمداً رسوله، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة: فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، ومن صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الرزية: فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن صلى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، ومن صام في كل شهر أيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾، ومن حفظ فرجه عمَّا لا يحل فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٥، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨٠، تاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٣٨٠، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٨٥.

(٢) تفسير البغوي، ٦/ ٣٥٢.

موعظة نفع الله بها:

عن يعلى بن عبيد، قال: دخلنا على ابن سوقة، فقال: يا ابن أخي، أحدثكم بحديث، لعله ينفعكم، فقد نفعني، قال لنا عطاء بن أبي رباح: إن مَن قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين، كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد؟ أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته[1]؟

وقال ابن جريج: رأيت عطاء يطوف بالبيت، فقال لقائده: أمسكوا واحفظوا عني خمساً، القدر خيره وشره، حلوه ومره من الله تعالى، ليس للعبد فيه مشيئة ولا تفويض، وأهل قبلتنا مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وقتال الفئة الباغية بالأيدي والنعال لا بالسلاح، والشهادة على الخوارج بالضلالة.

بعض مروياته فيما اتفق عليه الشيخان:

عن ابن جريج، عن عطاء، أنه سمع ابن عباس يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**».

وعن أيوب، قال: سمعت عطاء يقول: إن ابن عباس قال: أشهد على رسول الله ﷺ أنه خرج ومعه بلال يوم عيد، فصلى ثم خطب، ثم أتى

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، ١/ ٢٢٥، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٦، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨٣، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩٨.

النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، ثم أتى يأخذ في طرف ثوبه.

وعن حبيب المعلم، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، فاحتبس حتى نام الناس واستيقظوا، ثم ناموا ثم استيقظوا، فقام عمر فناداه: الصلاة يا رسول الله، فخرج يقطر رأسه، وقال: «**لولا أن أشق على أمتي لأخّرت هذه الصلاة إلى هذه الساعة**».

عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أكل أحدكم فلا يمسح يده حتى يَلْعَقها أو يُلْعِقَها**»[١].

بعض من أقواله:

قال عطاء: إذا تناهقت الحمير بالليل، فقولوا: بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعن عطاء، قال: لو ائتمنت على بيت مال، لكنت أميناً، ولا آمن نفسي على أمة شوهاء.

قلت: صدق رحمه الله ففي الحديث: «**ألا لا يخلون رجل بامرأة، فإن ثالثهما الشيطان**»[٢].

وعنه قال: النظر إلى العابد عبادة.

وعن عمر بن الورد، قال: قال لي عطاء: إن استطعت أن تخلو بنفسك عشية عرفة فافعل[٣].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٨.
(٣) حلية، ٢/ ٣٧.

تقدمه في السن ووفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:

كان عطاء يشرب الماء في رمضان ويقول: قال ابن عباس: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ إني أطعم أكثر من مسكين[١].

و قال ابن أبي ليلى: حج عطاء سبعين حجة وعاش مئة سنة.

ولما حضرت عطاءَ الوفاةُ، صِحْن النساء، فقال عطاء: اكفني هؤلاء، فإن أَبَيْنَ عليك فاستعن عليهن بالسلطان، ثم جعل يقول: يا صريخ الأخيار، يا صريخ الأخيار. فلم يزل يقول حتى مات[٢].

وعن حماد بن سلمة، قال: قدمت مكة، وعطاء حي، فقلت: إذا أفطرت، دخلت عليه. قال: فمات في رمضان.

قال الهيثم، وأبو المليح الرقي، وأحمد، وأبو عمر الضرير، وغيرهم: مات عطاء سنة أربع عشرة ومئة.

وقال يحيى القطان: سنة أربع، أو خمس عشرة.

وقال ابن جريج، وابن عيينة، والواقدي، وأبو نعيم، والفلاس: سنة خمس عشرة ومئة.

وقال الواقدي: عاش ثماني وثمانين سنة.

وقد كان بمكة مع عطاء من أئمة التابعين: مجاهد، وطاوس، وعبيد بن عمير الليثي، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، وأبو الزبير المكي، وآخرون[٣].

---

(١) تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٨.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٤٠٤.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨٨، تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٨٥، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٤٠٦.

فقد عمَر عطاء حياته بالعلم والعمل وأترعها بالبر والتقوى، وزكاها بالزهادة فيما أيدي الناس، والرغبة بما عند الله، فلما أتاه اليقين وجده خفيف الحمل، من أثقال الدنيا، كثير الزاد من عمل الآخرة.

عن أبي المليح قال: لما مات عطاء، قال ميمون بن مهران ما خلف مثله[١].

بشرى تزف إلى عطاء:

قال عمر بن سعيد، عن أمه: أنها رأت النبي ﷺ في منامها، فقال لها: سيد المسلمين: عطاء بن أبي رباح[٢].

(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ١/ ٥٥.

(٢) تهذيب الكمال للمزي، ٢٠/ ٧٧، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٨١، تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٠/ ٣٩٧.